جرموزا

محمد حسين عبد الرحيم السماعنة

جرموزا

محمد حسين عبد الرحيم السماعنة

2025

جرموز

لم تعد النجوم التي كانت تسحب نورها لنا نحن مجتمع الذئاب هي ما يمدنا بطاقة المسير بحثًا عما يقيم أودنا، نعم، هي تطالعنا كل ليلة بالنظرات الحنونة نفسها، ولكنها لم تعد تعني لنا شيئاً، ولم يعد القمر وحالاته يستهوينا، ولا وقفته بشموخ في السماء تدهشنا، ولم يعد فينا رغبة لمراقبته ولا الغناء له، فبعد أن زحف علينا هذا الموج الإسمنتي، وضيق علينا الخناق، وحصرنا في مربعات فراغية من الجبال لم نعد نحن نحن، ولم تعد الأرض هي الأرض، ولا السماء هي السماء، فالمساحات الواسعة لم تعد قادرة على أن تقدم لنا هداياها صيدًا حيًا طازجًا، وأصبحنا نحن الذئاب المفترسة نفترش الأرصفة، ونتابع نبض الحاويات بانتظار بقايا طعام البشر.

وقف الذئب الرمادي الأشعث الأغبر بارتباك أمام الحاوية وضربها بيده، ثم التفت إلى أبيه غاضبا والدم يفور من عينيه، وقال بعينين تقدحان شرراً وغضباً وحسرة: علينا الرحيل من هنا؛ انظر، انظر كيف يرمقنا البشر من علٍ، انظر كيف صاروا يتندرون بنا، انظر كيف يطردوننا ويطاردوننا! ثم رفع رجله، وبال على حديد الحاوية مما أغضب الذئب الرئيس، فعوى عواء هزَّ أركان الوادي، وركض بسرعة إلى الذئب الرمادي الأشعث الأغبر "ركرك" وعضّ أذنه حتى أدماها. ولولا أنه رأى الدمعة في عيني أمه "هبّورة" ما تركه، ولما اكتفى بذلك العواء الشرس التقريعي في وجه الجرموزا الصغير عاد الزعيم إلى مجلسه وهو سادر في مشيته لا يلتفت يمنة ولا يسرة.

رأت هبورة الدم يسيل من أذن جروها الوحيد فأسرعت إليه واحتضنته، وصارت تلعق جرحه وشعره، وتمسده بلسانها وأسنانها وهي تغني له:

جبل جبل جبل ووووووو

سهل سهل سهل ووووووو

وترد بقية الذئاب ووووووو

وبينما هم في جدال وغناء وحوار ورجاء وهمس ووشوشة وصياح أقبل من أقصى الشارع طفل يحمل بين يديه أكياسًا ملونة ولوّح بها، ثم ألقاهاعلى الأرض... وحين اقترب الطفل الصغير من

الحاوية، وحاول رمي ما معه من ثقل فيها عجز واستسلم لعجزه، فألقى الكيس على الأرض، ولم يلتفت إلينا نحن الذئاب على الرغم من همهماتنا ووشوشاتنا وهمراتنا، ومشى في طريقه إلى بيته، فالتفت الرئيس إليّ حانقا غاضبا يملأ عينيه القهر، وقال بحدة فيها أطراف مرارة: الحقه، وحاول إخافته ولا ترجع إلينا إلا وقد نلت من قلبه، وهززت ثقته بنفسه، وخلقت اضطرابا في نبضه!

فأذملت كالسهم خلف الطفل حتى أدركته، وتعمدت أن يلحظني بشخرة عالية ونخرة مزمجرة، ونبحت في وجهه، ودرت حوله، وتوقفت أمامه، وعويت وراءه، وهو ماضٍ في دربه كأن قلبه من حجر، ودمه من جليد، فاقتربت منه أكثر وهو على حاله من اللامبالة، متناسيًا وجودي ونزولي وصعودي وصوتي وهمسي ونباحي وصياحي ووقوفي وثباتي، فأغاظني فعله، وأربكني تجاهله، فاقتربت منه أكثر، ونبحت وعويت وزمجرت وصحت وصرخت واقتربت منه أكثر ونكزته، ومن ردنه شددته، ومن يده أخذته فالتفت إلي، وسارع بيده إلى جيبه فأخرج قطعة من المعدن ورماها إلي، فركضت لالتقاطها وتفحصها وهو واقف ينظر إلي بعينين مبتسمتين وبنبض لا رائحة للخوف فيه فأغضبني ذلك، واستفزني فعزمت على افتراسه وجعله عبرة لمن لا يعتبر من جنس البشر، ولكنه أخرج من جيبه رقاقة معدنية أطلق علي منها سهاما ذات أصوات حادة مخيفة، فهربت بسرعة إلى حيث تجمعت الذئاب الغاضبة، ورنين ضحكات الطفل الصغير تتراقص في دمي...

ولم تمر تلك الليلة على خير، فقد ازدحمت الممرات الجبلية بالمشاعل الباحثة عنا، وملأت أنفاس الناس الغاضبين زوايا الكهوف والشقوق، ولم يكن غياب الشمس كافيًا ليمنع تلك العيون المستنفرة من البحث عنا ومواصلة البحث بلا تعب أو كلل لقتلنا، والتنكيل بنا، والتمثيل بجثثنا، وعرضنا على واجهات البطولة البشرية، كنا نسمع وقع أقدامهم وهي تلطم الأرض بقسوة وثبات، ونحن نراقب عيني الرئيس المتوثبتين المتحفزتين، ونتابع أذنيه الواقفتين بثبات لالتقاط صوت الخطر، ونلاحق بأعيننا حركة يديه اللتين كانتا تطلبان منا التنفس بهدوء ورقة ولطف وتدعواننا لتوحيد نبضاتنا مع نبضات الأرض، والاستسلام لدفئها.

مرت الليلة طويلة علينا هناك في مغارتنا الموغلة في البعد بين ثنايا الجبل حيث لا ترانا عين، ولا تطالنا يد بعد أن مسحت على قلوبنا الجبال بيد الحب والحنان.

وبعد ليال طويلة كثيرة استترنا فيها واختبانا هناك قلت للرئيس بحب ودلال: تعب المكان منا يا زعيمنا؟

فنظر إليّ غاضبا حاقدًا، وقال: أما أنت فاسكت، ألا ترى ما سبّبه لنا طيشك وتهورك؟

فسكتّ، وأخرست نبض الحرية في قلبي، لأني أعرف أنني سبب ما نحن فيه.

اختار الزعيم يوم عيد البشر الكبير ليكون يوم خروجنا إلى الشمس، وكانت الخطة واضحة ومعروفة لنا كلنا، فقد ألفنا خطط الزعيم وعرفناها وحفظناها، كما أننا حفظنا عن ظهر قلب ما سيقوله وكيف سيقوله ...

– "سفسف" سيستطلع لنا الطريق ويتعسس الأخبار، و"كركر" سيراقبه من بعيد، وأمي ستقف على تلك الصخرة لتستمع للنداءات وتراقب الإشارات، وكلنا أمل أن تحمل لنا البشارة وصوت الأمان.

لم يجرؤ واحد منا أن يسأل لم وهل وكيف. فقد كنا نطيع وننفذ بصمت، مع إنني كنت أعرف وأعي لم كان الزعيم يختار دائما "سفسف" الذئب الصغير المكتنز ذا العينين المليئتين بالنشاط ليكون أول من يواجه الخطر، وأول من يتصدى له، والدرع الذي يقي به القطيع، فقد تعددت الروايات المكتومة في همسات مخفية في تفسير ذلك، فكركر يرى أن "سفسف" هو الأقدر على استطلاع المكان لأنه ماهر وسريع وذكي وفطن وسريع البديهة، وجسده الرمادي النحيل وعيناه البارزتان تعطيانه نظرة التفضيل، أما فرفور فكان له رأي آخر فهو يظن أن الزعيم يخاف من منافس جديد على الزعامة، وأما أمي فكانت تكتفي بهز رأسها حين أسألها عن السبب.

البناء الضخم

البناء الضخم الذي استقبلنا بصمته الرهيب وأبوابه المتلاطمة، وجدرانه الكالحة، ووشوشات الريح المريضة للنوافذ احتوانا في أربع طبقات واسعة مفتوحة الأطراف على ساحاتٍ واسعة توقفت فيها على غير نظام مجموعة من الهياكل الحديدية لحافلات مهشمة وسيارات محطمة، إلى جانب عدد كبير من الطبليات المصفوفة بنظام دقيق...

وقادنا الزعيم إلى غرفة واسعة تطل على الشارع الرئيس، ثم تثاءب وتمطى، ثم أقعى، وقال بحزم وبصوت خشن: "جرموزا"، ابقَ هنا معهم! قالها بكثير من الجدية والثقة والحب. وكانت تلك مهمتي الثانية، أن أبقى مع العائلة، وذلك يعني أن أحرسها، وأن أحميها، وأن أختار لها، وأن أسهر على راحتها، وهذا معناه أيضاً أنني أصبحت ذئبا ووووووو. وما إن أنهيت وصلة العواء المنتصرة حتى امتلأ المكان بالعواء ووووووو

ومن ركن بعيد في البناء كان الرد عواءً عاليًا ضخمًا مزلزلًا بهت له الزعيم وأشار لي أن اخرس فخرست وصمت وسكت وانطويت على نفسي ألومها...

وقفنا كلنا بحرص وحذر أمام الزعيم الذي ملأ الغرفة الواسعة جيئة وذهابا، وفجأة وقف أمامنا بقوة وعزم وحزم وقال: علينا أن نقاتل، لا طعم للحياة الهانئة المؤقتة المهددة، علينا أن نكون وحدنا في هذا الوطن، فالوطن لا يتسع إلا لنا نحن، ثم رفع صوته بعواء حربي مدو: ووووووو

فاجتمعنا كلنا على عواء موحد حينًا، ومتفرق مشتت أحيانًا، وانتظمنا خلف الزعيم وبدأنا هجومنا على القبيلة الغازية التي أعلنت هي الأخرى النفير والهجوم لتبدأ معركة شرسة من العض واللطم والخمش والرفس والهرس، وانتشرت أصواتنا وصيحاتنا ممزوجة بآهات الجرحى بين سكون الساحات وبصدى تتقاذفه الجدران. ولم تطل ساعات المعركة فقد انقشع غبارها عن انتصار وثلاثة قتلى وجرحين ...

وتوجه الزعيم الذي سال الدم على وجنتيه، ومن رأسه وفخذيه ووقف أمام الجرحى وعوى: ووووووو

فعوى الجرحى: ووووووو فجاءنا الصدى: ووووووو يتخلله عواء جريح لزعيم مهزوم يتوعد ويهدد ووووووووو

وخلت لنا الساحة وانفرد الزعيم بالحكم على المربع الممتد من الوادي الأحمر شمالًا إلى الوادي الأصفر جنوبا ومن الوادي الأزرق شرقًا إلى نبعة عين الثعلبة غربًا.

واستقر الزعيم في غرفة كبيرة وسط البناء وحوله كانت أمهاتنا يبسطن ألسنتهن لتنظيف فروهن ولعق جراحهن.

لن أنسى ذلك الصباح الذي نادانا فيه الزعيم، وركضنا نحوه ولما اجتمعنا أمامه قام من مرقده ومشى نحونا، وبخطوات هادئة اصطففنا أمامه فمر من بيننا وهو يتفحصنا واحدًا واحدًا، ثم عاد إلى مكانه، وقال بصوت واثق ثابت: أيتها الذئاب هذه أرضنا وهذه دماؤنا وهذا وطننا، فلنحم هذا الوطن بأرواحنا، ثم نظر إلي وقال: جرموزا! فلبيت. فقال: أما أنت فسيكون مكانك هناك، وأشار إلى غرفة صغيرة على سطح البناء، ستكون مسؤولًا عن مراقبة الشارع وأرصفته.

كانت الغرفة تطل على ساحات واسعةٍ فيها بعض الأشجار العالية والهياكل الحديدية المحطمة المهملة، وقطع مختلفة لآلات كبيرة بل ضخمة، ومجموعة من السلالم الحديدية، وكثير من الأعمدة والرافعات المنتصبة في السماء وهي محملة بأثقال إسمنتية. ويتمدد الشارع البشري الواسع الذي يفصل هذا الوطن عن بقية العالم أمامي كأفعى سوداء عظيمة.

ومن الزجاج المكسور راقبت كل مكان، ولم أر غير الكرات الشوكية الضخمة وهي تتراقص في الساحات تميلها الريح فتحركها يمنة ويسرة ...

مر يومي الأول في الغرفة سريعًا بلا أي صور جديدة على المشهد الذي أطللت عليه في صباح ذلك اليوم.

كانت الشمس اللاهبة تصلي وجه الأرض الصلبة القاسية التي تمسك بها الوطن هذا البناء الضخم الذي أوينا إليه، والرياح العاصفة تسف في وجهي التراب والغبار حين سمعت صوتًا جريحًا يتقلقل في جسد أطلس عسال، فأسرعت إلى الزعيم لأعلمه وأحذره، وما إن سمع الخبر حتى احتقن الغضب في عينيه وعوى: ووووووووو

فاجتمع القطيع بلمح البصر ينتظر سماع الخبر.

وقف الزعيم ذو الجسد الأحمر والشعر الكثيف والأذنين المتقدتين بنار الحركة على تلة الحكم، التلة التي احتضنت الوطن بذراعين من صخر بازلتي جاف وهو ينظر بعينين من شرر ونار، وقال:

يا أحبتي، لم يمضِ زمن طويل على انتصارنا واستقلالنا في هذا الوطن، وها هم الأعداء قد نظموا صفوفهم، وأرسلوا عيونهم ليتجسسوا

فنظرت إلى الزعيم نظرة احتجاج واعتراض على هذا الكذب المعلن فقلت مقاطعا: يا زعيمنا!

لكنه أخرسني بنظرة من عينيه الناريتين، وزجرني بنفثة من صدرٍ بركاني وأكمل كلامه: ... ويتعسسوا، وقد جمعتكم لأني أريدكم أن تعدوا ما استطعتم من كل قاتل وواق..

وانفض الجمع بحماس، وكما توقعت دخل صاحب الظل حدود الوطن وبدأت ملامحه تظهر لنا عن قرب، إنه ذئب ترابي منهك، وفي عينيه جوع عميق امتزج بخوف مربك، وهزال ممعن بالرضا، ووهن وضعف أورثتهما إياه شمس حارقة ورمال لاهبة.

وأطلس العسال في ساحة الوطن ومشى خطوات إلى مركزه، ثم ارتمى على الأرض وهو يلهث كمن أكل الذباب رئتيه.

فقلت للزعيم دعني أساعده فإنه لم يقطع هذه المسافات عبثًا، وأظنه يحمل لنا رسالة خطيرة.

فكر الزعيم قليلاً بكلامي، ثم لمعق وجهي موافقًا، فركضت إلى الذئب المرتمي على الأرض ومعي ماء وقليلٌ من لحم طير، فرفعت رأسه، وقطرت في فمه من الماء قطرات فأفاق وفتح عينيه على اتساعهما، فأسلت الماء في فمه سيلًا فصار يبتلعه بنهم وبلا تفكير ...

وجاء الليل، فاجتمعنا حوله نسأله ونسائله، وننظر إليه ونحاوره وهو صامت لا يتكلم، وبقي ينظر إلينا بعينين من نار ودخان لم يطفئهما إلا دخول الزعيم...

وقف الذئب الغريب منتفضًا حين سمع أنفاس الزعيم، وصار يعوي وووووو عواء فيه لين وحزن.

وقف الزعيم على التلة التي تحتضن القرية، وقال بصرامة: هات ما عندك، واشرح، وفصّل، وعدّد، وبيّن؟

فقال الذئب الغريب القادم من المجهول: ...وجاء الليل ونحن لا ندري ما هذا الصوت، ولا نعرف ما هذا المجهول القاتل الذي استولى على طعامنا، ولم يبقِ لنا من الفرائس ما نلاحقه، أو نصطاده، ولما صرنا بين خيارين أحلاهما مر: الموت جوعًا أو الموت بين أنياب هذا المفترس المجهول، اخترنا مواجهة القاتل المجهول ...

فخرجنا نضرب في الأرض بحثًا عن طعام ولكن، هيهات! فقد أكل المجهول القاتل الأخضر واليابس وكل ما يتحرك فوق الأرض، وما يطير في السماء ... ومشينا ومشينا حتى لم تستطع أجسادنا المنهكة الجائعة الصمود...

- هل ماتوا كلهم؟ سأل الزعيم؟

- بل التهم الوحش جثثهم أيضًا!

- وجئت إلينا! أيها القاتل!

فضحك الغريب ضحكة عوائية مدوية شامتة فتذكر القطيع صاحب ذلك هذا العواء وتذكروا عينيه الغاضبتين وهو يهدد ...

واجتمعنا عند التلة نتحاور ونتناقش ونتجادل في أمرنا والزعيم صامت يراقبنا ويستمع إلينا بصمت غريب حتى إذا فاض الصوت على الساحة عوى الزعيم: وووو

فسكتنا ورانَ الصمت على المكان

فقال بثقة: اسمعوا وعوا وووووووووو

أولًا: اطردوا هذا الحاقد الباحث عن ثأره الذي يحاول الانتقام منا بمخالب غيره وألقوه خارج الوطن، وهذه مهمة سفسف وكركر وجرموزا. عضّوه عضًا وانهشوا لحمه نهشًا حتى يخرج من حدود الوطن، وابقَ يا سفسف هناك على تلك التلال لمراقبة القادمين

ثانيًا: فلتعدّ لنا أم جرموزا خطة تقشفية تكفينا جفاف فصل الشتاء كله؛ فإننا سنأوي إلى باطن الأرض.

ثالثا: يخرج هرهور وكركر وعرعور وأم جرموزا للصيد لجلب ما يستطيعون من اللحم، أي لحم!

رابعا: على من تبقّى من القطيع البدء منذ اليوم بحفر غرف ضيقة لنا في باطن الأرض على أن يكون لها مداخل ضيقة متعددة.

خامسا: بعد الانتهاء من بناء الغرف وممراتها علينا أن نحفر في الأرض عميقا خندقًا يتسع لنا كلنا مع طعامنا على أن يكون له منفذ واحدٌ صاعد متعرج.

وعلا في ساحة الوطن عواء ذئب وآهاته ووووووووووو

وأصوات مخالب تنهش الأرض ...

قلت لهم: أيها الحفارون، إن حفرنا بلا تخطيط حبط عملنا، وقد قرأت في كتاب الذئاب أن الحفر عميقًا في الأرض له أسس وقواعد، ولا يستطيعه إلا من تمرس وتدرب، ولا يستطيعه إلا صاحب مهارة وخبرة، ولا ينجح في إنجازه إلا من أعد نفسه ووضع خططه، وقد علقت في ذهني رسومات كثيرة لأشكال الحفر وأنواعه، وأرى أن نختار منها ما يناسب طبيعة الأرض ونوع تربتها.

فكثرت التمتمات والهمهمات والهمسات وازدحمت حتى أوقفتها أمي، حين قالت يا جرموزا أعدد لنا خططك ورسوماتك اليوم قبل الغد.

وبين لهاث الذئاب التي أعملت مخالبها في باطن الأرض وضربات نبضاتهم المتسارعة المتدفقة استطعت تمييز لهاث أمي التي كانت تحفر بصبر وقوة، فمشيت إليها فإذا الدماء تسيل من مخالبها، فرجوتها أن تجلس وتستريح لأعالج لها جراحها، لكنها لم تستمع لكلامي، ولم تستجب لرجائي، وبقيت سادرة في حفرها والذئاب تنظر إليها بإشفاق وحزن.

كان القطيع المنهك المتعب ينظر إلى أمي التي يسيل من مخالبها الدماء فتموت كل أفكار الوهن والتعب التي ترواده.

ولم تمضِ سبعة أيام حتى كانت المخابئ العميقة جاهزة لاستقبالنا، فقد أعدت الذئاب غرفًا واسعة في أعماق الأرض بممررات ضيقة ذات التواءات وانحناءات وتعرجات كثيرة يتوه فيها الغريب الذي لا يعرفها، ويعلق في متاهاتها، ولا يصل للغرفة الحصينة إلا بعد أن يستهلك قواه، وهو يصل إذا نجح بالوصول واهانًا خائر القوى فيسهل صده وقتله.

دخل الزعيم المخابئ مخبأ مخبأ، وسار في ممراتها، وأدهشته متاهاتها، فسأل عن المخطِّط، فأشاروا إلي، فقال بحب وبدهشة:

جرموزا جرموزا، أحسنت يا بطلنا ولعق وجهي لعقتين فيهما كثير من الحب والود والفخر، فعوت الذئاب ابتهاجًا بهذا الإنجاز ووووووووو

كتاب الذئاب

لا أذكر متى وصل كتاب الذئاب إليّ ولا من أين حصلت عليه، ولا كيف حصلت عليه، ولكنني أذكر كل حرف مما تبقى منه، وكل كلمة في أبوابه التي لم تأكلها يد الزمان كل رسمة فيها، وأذكر أن صفحاته المهترئة التسعين تقاسمت أبوابه المتبقية التي حملت عنوانات أذكرها كما رتبها حكماء مجهولون من الذئاب:

الباب الأول : باب الصيد

واعلموا أن الصيد فيه حياتكم وسعادتكم فأنتم خلقتم صيادين، فالصيد يسري في دمكم، وهو فطرتكم التي فطرتم عليها.

واعلموا أن الصيد أنواعٌ وأشكال وألوان فابحثوا عن القاصية من الطرائد، أو المطرود، أو المنبوذ البعيد عن جماعته، المفارق لأهله التائه في دربه.

ولا تقربوا حمى ناره مشتعلة، ولا جماعة يقودها قائد مطاع، ولا بابًا موصداً بأغلال وقلوب، وابتعدوا عن بيوت الأسود، ومضارب الفهود، وساحات صيد الضباع.

وأما ما صدتموه فتقاسموه، وأما ما زاد منه فاحفظوه في الأرض كما علمتم وتعلمتم.

ولا تكثروا من رحلات الصيد، ولا تتكاسلوا عنه، وليكن مبلغ همكم أن تقيموا أودكم، وأن تطعموا جرءاكم.

وهذه أنيابكم إن تركتموها من غير خمش وقطع ونهش وهنت واهترأت، فأكرموها بالصيد، وحافظوا عليها بالمداومة عليه فإنما خلقت المخالب للصيد والحفر والصد والضرب والفتك.

الباب العاشر: باب الحفر

واعلموا أن جدكم الأعظم كان حفارا محترفًا، وتشهد على براعته هذه الحفائر ترونها والكهوف المنتشرة في الوادي في كل مكان حولكم، ومهارته واضحة ظاهرة في تلك المغارة الكبيرة التي ترونها تحت شلالات الجبل العالي

وقد حدثنا من نثق بصدق روايته أن جده حدثه عن جدنا الأعظم قال: "مرت على الذئاب سنوات عجاف قلَّ فيها الصيد، وكثرت فيها سباع الأرض، ودارت بينها نزاعات وحروب، وقتلت فيها آلاف الذئاب والكلاب والأسود، وخفتُ على عشيرتي من الهلاك جوعًا، أو الهلاك قتلًا بأنياب العشائر القوية الأخرى، ففكرت بوسيلة للهرب بهم ، والنجاة بمن تبقى منهم، فما وقفت لي فكرة أرتاح إليها، وبينًا أنا في حيرتي تبدّت لنا وسط الجبل أفعى كبيرة ضخمة انسلت من بين الحشائش ونزلت إلى الماء، وغابت ساعة، ثم عادت إلى مكانها في الجبل، فأرسلت من تتبعها ليعرف مشوارها اليومي ومخبأها الآمن، وعاد ليقول لي بأنها تنزل إلى النهر فتقف بين الحشائش كأنها عصًا، فما اقترب منها اصطادته وابتعلته، وحين يمتلئ جوفها تعود إلى شق عميق بين الصخور، فارتحت إلى فكرة الحفر في الأرض قريبًا من الماء، فاستكشفت المكان، ودرست أبعاده وحدوده.

كان وادي القرود وادياً سحيقا بين جبلين عظيمين، لا يمكن لأحد الدخول إليه إلا عبر ممر ضيق وعر كثير التعرجات والالتواءات، وعرفت أن عشيرة من القرود تسكنه وتحتل أطرافه منذ زمن بعيد. فجمعت العشيرة، وبينت لهم خطتي وما يعترض تنفيذها، فوافقوني ووقف واحد منهم وقال بحسرة: يا زعيمنا، نحن لا نعرف الحفر، ولا نتقنه، ولا نعرف طرقه!

فقلت لهم دعوا أمر الحفر لي.

ولم يكن الفأر قادرًا على التفكير من الخوف وهو بين عيون الذئاب التي أحاطت به، فقد شل الرعب لسانه وقلبه، وأما الأرنب فما احتمل صفعة من مخلبي، وأما الثعلب فعرف أنه في ورطة بين أنيابنا فقال لنا: أنا أدلكم على من يعلمكم الحفر في الجبال، ويبين لكم طرقه وأساليبه وأخطاره إن أطلقتم سراحي، وخليتم سبيلي، فوافق الزعيم، فدلنا الثعلب على الحكيم ثعلوب الذي يسكن وادي القرود.

ووزعتُ عشيرتي إلى ثلاث مجموعات: مجموعة سلكت طريق البحر الهائج، ودخلت الوادي في الليل المعتم، ومجموعة دخلت الودي من طريق باب القرود، وأما أنا فانتظرت على طرف المصب أتحين الفرصة للدخول، ولم تمضِ ساعة أو أقل حتى ملأ الوادي صدى عواء استغاثة، ورأيت أبناء عشيرتي في الوادي الضيق يركضون هاربين مولين الأدبار، فأمرت من معي أن يدخلوا لنجدتهم وأما أنا فصعدت الجبل بسرعة وانحدرت من ناحية الشلال في الممر الضيق المرعب حتى صرت خلف الشلال وكان الماء يهوي من علٍ بقوة رهيبة.

لم تكن المساحة التي لذت إليها خلف الشلال تتسع إلا لثلاثة ذئاب هم الذين سيتولون الحفر، وكان عليّ اختيارهم بذكاء، كركر الذئب الذي لا يناقش إن أمرته، ولا يتساءل إن وجّهته، ولا يعترض إن رددته، وعروس الشجر الذئب الأحمر صاحب الكفين الواسعتين والمخالب الطويلة، وجرجوري المخاطر.

وابتدأنا الحفر، وأنجزنا عملنا في سبعة أيام، واصلنا فيها الليل مع النهار، حفرت فيها الذئاب بسرعة وبخفة ووفق خطة استلهمتها من كلام ثعلوب الذي قال لي:

إن حفرتم عميقًا تعبتم، ولكن سيروا مع خطوط الأرض الطرية، وإن واجهكم صخر صلب فالتفوا حوله؛ فلكل صخرة بداية طرية، وإن ارتاحت مخالبكم للحفر فاجهدوا أن تحفروا بسرعة فبعد كل

طراوة في الأرض صخر صلب، ولا تسيروا في حفركم في خطوط مستقيمة فتنهار أخاديدكم وإنما اهبطوا وارتفعوا والتفوا وتمايلوا وتعرجوا، ولا تنسوا أن تجعلوا لكم في كل غرفة مخرجًا لا يمر منه إلا ذئب واحد ...

–أكمل يا جرموزا، لم توقفت؟ صاح ذئب أمتعه الحديث

– تشابكت الخطوط في السطور، وتداخلت أذرعها وما عرفت ما تبقى منها

قال الزعيم وهو ينظر إلى البعيد بعينين مبرقتين: أين ذلك الشلال، وما حصل لمملكتنا الأولى هناك؟ علينا أن نستعيدها ونعيدها!

الباب التاسع عشر

الموت

للموت في عائلتي عائلة الذئاب الرمادية طقوس عليكم أن تعرفوها، فالموت عندنا حياة جديدة نحصل عليها في المعارك والقتال والنزال لا بغيرها، ونحن لذلك نسعى إليها بقوة، لإنه إن مات أحدنا مقتولا فرحت زوجته وحرمت بعده الزواج، ومدحته قبيلته، وصار بطل الحكايات وحديث الجلسات، وغناء رحلات الصيد.

وأذكر من الذين قتلوا في المعارك عمي الجريمي، وخالي السعيدي وخالتي الرقيقة، وابن عمتي السلعود، وهؤلاء كلهم ماتوا في حومة الوغى دفاعًا عن الحمى، وقصص بطولاتهم تحكى وتروى وتذكر. فعن خالي السلع أن خالي السعيدي كان أسرع من البرق وأقوى من الطوفان، وأجمل من الربيع وأرق من النسيم، وأنه كان حازما في لين، وقوياً في رفق، وشديدًا في رقة...

وعن قصة مقتل خالي السعيدي يقول: أتعبنا الطوفان الذي ملأ الوادي فقد حشرنا أيامًا طويلة في مغارتنا، وجوعنا، وأوهن أجسادنا، فقرر السعيدي أن يخرج ليشق لنا طريقًا للنجاة من هذا

الموت البطيء، واستطاع الخروج من الوادي، ووضع لنا علامات الخروج لنتبعه بعد أن يمر الوقت المتفق عليه، ولما خرجنا ما وجدنا من جسده شيء ...

الباب العشرون

الصمت

خرجنا كلنا نمشي على حافات الوادي بعد أيام طويلة من النوم في أوكارنا، وكم أدهشنا وأقلقنا أن الصمت كان يلف الوادي، فمنذ خروجنا والمكان صامت ساكن لا حركة فيه ولا حس. ولا أثر لأي حياة ...

وأقلق وصف هذه الحال زعيمنا الذي وقف حائرًا على صخرة عالية تشرف على مدينة البشر التي بدت هي الأخرى خاوية على عروشها، وقال بصوت مرتبك: سنعود إلى مدينتنا في أرض البشر فهذا المكان مخيف ومرعب، وغير آمن.

ومشينا بتثاقل نتلفت يمنة ويسرة وفي كل اتجاه، ولا شيء أمامنا سوى بعض العظام النخرة.

كانت المدينة البشرية خاوية على عروشها، وليس فيها ما يشير إلى حياة، ولا إلى موت، ولكن شيئًا غريبًا كان يملأ صدورنا كلنا حين سمعنا البنايات فيها وهي تتنفس وتشعرنا أنها تراقبنا، بل إن بعضها كان يميل مع خطواتنا.

ولما شعر الزعيم أن الخطر قريب منا، أشار إلينا بالتراجع إلى مدينتنا وتوزعنا مرة أخرى كل في مكان.

بقي الصمت هو العنوان الوحيد لأيام طويلة قضيناها في مدينتنا المطلة، ونفد ما جمعناه من طعام وما خزناه، فقررنا الدخول مرة أخرى إلى المدينة البشرية لعلنا نحصل منها على بعض الطعام.

ودخلنا المدينة البشرية من ثلاث جهات بأعيننا وآذاننا وبخطوات حذرة، وتوغلنا في أحيائها الخالية الخاوية، ودخلنا بيوتها، ومحلاتها، وساحاتها، ولكننا ولم نعثر على شيء سوى بقايا

عظام بشرية نخرة، ولم نسمع فيها أي صوت، ولم نر أي حركة سوى أضوية ساطعة تنير بعض الممرات والشوارع والبنايات لتي غابت أنفاسها.

وفجأة سمعنا عواء عالياً صاخباً فركضنا نحوه، وكان ذلك عواء كركر ينبهنا على سحابة صفراء تزحف بسرعة هائلة نحو المدينة.

فأشار علينا القائد أن نركض بجوعنا وتعبنا وأرواحنا وخوفنا إلى المغارة ...

مضت سبعة أيام طويلة وقائدنا متردد في أمر خروجنا من المغارة، ولولا أن الجوع قد أوجعه في جرائنا ما قبل الزعيم بإرسال كركور ليستطلع الأنباء ويتحسس لنا الأخبار ويعرف ما جرى من أمر الغمامة الصفراء.

مضت ساعات وكركور في جولته، ونحن ننظر إلى وجوه بعضنا التي تحيفها الجوع والقلق والخوف، ولم يقطع ذلك الصمت الذي احتوانا غير صوت أمي التي كسرت حاجز الصمت بصوت جميل ناعم حزين:

دللوه دللوه إن بكى لا تشتموه

هو قد جاع حبيبي

إنه الجوع وأنتم

كلكم لن تفهموه

دللوه دللوه

هو إن صاح ونادى

أو تمادى

فدعوه

إنه ابني حبيبي قد بكى لا تظلموه

دخل كركور المغارة يائسا وعلامات الخوف على وجه: يا زعيم، إنها السحابة الصفراء تلتهم كل شيء: الأشجار والنباتات والطيور والحشرات كل شيء يا زعيم ...

وعاد الزعيم يضرب أخماساً بأسداس فقد صرنا بين نارين: الموت جوعًاً أو الموت بين أنياب هذه الغمامة الشرسة الغامضة ...

وفجأة استدار إليّ وقال بحب: جرموزا! فتش في كتابك عن الخلاص من هذه الغمامة القاتلة.

أخذت مكاناً قصياً في أخاديدنا في الجبل وشرعت بتقليب أبواب الكتاب باباً باباً، وأنعمت النظر في جمله، وفكرت كثيراً في قضايا أبوابه، من باب الزواج حتى باب الهجرة، ولكنني لم أقرأ عن أخبار أي سحابة، ومع ذلك فإني لم أفقد الأمل وأعدت قراءة العنوانات والربط بينها. ولما كاد اليأس يدخل إلى قلبي لاحت لي بين السطور جملة كأني أقرؤها لأول مرة مع أنها كتبت بخط مختلف ووضع تحتها خط أحمر. إنها عبارة حرص كاتب الكتاب على أن يظهرها ويشير إليها وكأنه كان يعرف أننا سنحتاجها. ففي الجملة الأولى في الصفحة السادسة من باب الصيد يقول الكاتب:

وفي الماء صيدكم الصعب...

طرت فرحاً بقراءة هذه العبارة، وركضت بالبشارة إلى العائلة التي استقبلتني بعيون مبرقة مشرقة.

وصار أكبر همنا هو كيفية الوصول إلى البركة من غير أن تحرقنا الغمامة فتذكرت كركوراً وجولته الاستطلاعية فقلت له: يا كركور احكِ لنا كيف خرجت، وكيف تجنبت الغمامة؟ فضحك كركور ضحكة عالية وقال: توقعت ألا تسألوني أبدا، واستغربت عدم سؤالكم عن جولتي، سأقص عليكم ما فعلت لعل فيما صنعته ما يفيدنا في تجنب الغمامة. فقلنا له بصوت واحد: احكِ احكِ

فقال وهو يستمتع برؤية مجموعات العيون والآذان التي ركزت انتباهها عليه: بعد أن خرجت من المغارة رأيت أن أحمي نفسي؛ فقلت إن أفضل الحماية هو التراب فعفرت نفسي بالتراب ودخلت البركة بسرعة، ثم خرجت منها، ثم دخلتها، وعفرت نفسي مرة أخرى بالتراب حتى غطيت فروي كله بالطين، وحين خرجت من الوادي رأيت ما رأيت، وحرصت على أن يبقى جسدي ملتصقًا بالأرض، وأن تكون حركتي بطيئة غير ملحوظة.

وارتفعت أصواتنا إعجاباً.

وكعادته، وقف الزعيم أمامنا منتصب القامة بعد أن دار حولنا عدة دورات كأنه يتفقدنا، ثم نظر إلي وقال: صيد الماء صعب، ولا يستطيعه الذئاب!

فقلت بثقة بل نستطيعه إن نحن لجأنا إلى الحيلة!

فنظرت الذئاب كلها إليَّ بلهفة وحب. وحين رأيت العيون شاخصة والآذان منتصبة متشوقة أكملت حديثي بزهو: سنحفر حفرتين جانب البركة وحين تمتلئ الأولى نسد طريق ماء البركة إليها، ثم نفتح باب الحفرة الأولى مع وضع ما يمنع السمك من الهروب إلى الحفرة الثانية، ليبقى السمك في البركة الأولى ليكون طعامنا.

وفي الليل تسللت مجموعة منا وبرشاقة وسرعة بدأت الحفر، وانتهت في اليوم الأول من تجهيز الحفرة الأولى، ولم تتأخر في تجهيز الحفرة الثانية في اليوم الثاني. وفي اليوم الثالث أشرف الزعيم على انسياب ماء البركة بما فيه من أسماك إلى الحفرة الأولى. وحين امتلأت الحفرة الأولى أغلقنا باب مسيل الماء من البركة، وفتحنا منفذًا للماء إلى البركة الثانية، وراقبنا بشغف وحب الأسماك وهي تحاول الهروب من هذا الفخ.

تجمعت لدينا تلك الليلة كمية كبيرة من الأسماك تكفينا فترة طويلة فنمنا هانئين.

ومضى أسبوع طويل ونحن في أوكارنا تحت الأرض نأكل وننام ونصحو لنأكل وننام. فبدأ الملل يتسرب إلى أنفاسنا، وضجت وشوشات الحرية في صدورنا فقلت للزعيم: يا زعيمنا، هل الحياة أكل وشرب ونوم، هل هذه هي الحياة، أسمح لي بالمغادرة ومواجهة الخطر فأنا أرى أن مواجهة الخطر أحسن لنا من النوم والأكل، يا زعيم، أعمارنا تستحق أن نعيشها، لن أسمح لأحد أن يصادر أعمارنا، ويحاصر انفاسنا، سأخرج لمواجهته كيلا أكون ضحية مجانية له، نحن الذئاب خلقنا لمطاردة اشعة الشمس.

لم يستمع الزعيم إلى الغضب الذي بثثته، ولكنه كرر جملتي" لن أكون ضحية مجانية".

المواجهة

إنها الليلة الثامنة منذ صيدنا المائي والأوكار تعج بأصوات الذئاب المتشابكة، والأخبار التي تصلنا عن تحركات السحابة غير مطمئنة؛ فقد زاد حجمها، وبدأت تتمدد أكثر باتجاه البركة، وهي تقف بتنمر على أطراف البناء الضخم، بل وتغطّيه كله، ولكن شيئا ما يمنعها من دخول البناء، فهذه السحابة عودتنا أن تلتهم كل شيء فيه حياة فوق سطح الأرض.

ولما رأى الزعيم أن وقوف السحابة على أبواب البناء الضخم قد طال، وأن حياتنا تحت الأرض صارت صعبة، وأن تذمرنا الذي بدأته أنا قد ظهرت آثاره في عيوننا المرهقة، وفي تصرفاتنا، بل وفي عوائنا جميعنا، وقف أمامنا كما يفعل في كل مرة وبعد أن دار حولنا دورات قال:

لقد علمتم من أمر السحابة ووقوفها على أطراف البناء مدينتنا وتغطيتها لكل أطرافها، وعلمتم أنها سحابة لا قبل لنا بها، فهي مما يصعب هزيمته لأنها تقاتلنا بما لا طاقة لنا به، فهي لا تملك أجساداً مثلنا، وليس لها مخالب مثلنا، وهي تقاتلنا بلا عيون وبلا أنياب، وأنتم تعرفون أن جرموزا قد فتح قلبه وبيّن ما فيه من تعب وملل من هذه الحال، وأنا أعرف أنكم كلكم مللتم مثلله، ولذلك فإنني قررت أن نواجه السحابة القاتلة، ونقاتلها وننتصر عليها، ولكن علينا أن نختار نحن كيف ومتى وأين. وإني شكلت فريقاً منكم، ووضعت على رأسه جرموزا لاستطلاع الموقف ومعرفة من أين يؤكل هذا المخلوق، وكيف ننتصر عليه.

ودّع القطيع فريق الاستطلاع بعيون حالمة، بعد أن حمّله كثيرًا من الأمل، ووضع على عاتقه كثيرًا من الأمنيات، وكثيراً من الرغبة في الحياة.